أدوار الثقافة الشعبية في تأصيل الهوية الثقافية وتحقيق التنمية الاجتماعية
مقاربة أنثروبولوجية "المجتمع التبسي أنموذجا"

The roles of popular culture in rooting cultural identity and achieving social development -anthropological approach- "The Tebessian community is a model"

مراح نور الهدى[1]، ميهوبي إسماعيل[2]

[1] جامعة العربي التبسي – تبسة،(الجزائر). *nourelhouda.merah@univ-tebessa.dz*

[2] جامعة محمد البشير الابراهيمي - برج بوعريريج،(الجزائر). *smailmihoubi3416@gmail.com*

تاريخ الإستقبال: 2019.04.02	تاريخ القبول: 2019.06.13	تاريخ النشر: 2019.07.21

ملخص

تتحدد معالم البناء الحضاري لأي مجتمع إنساني بجملة من المحددات الاجتماعية والثقافية، وتشكل في مجملها قواعد هويته الثقافية، وما تشتمله من منظومة قيمية وعرفية يتفق عليها أفراد المجتمع.

و تعد الثقافة الشعبية واحدة من أهم مكونات البناء القيمي والعرفي المجتمعي، و ما تحتويه من مركبات مادية وغير مادية تمثل في جوهرها الذاكرة والحاضر الجماعي المشترك للأفراد والجماعات.

سنحاول خلال هاته الورقة البحثية تقديم تصور مستفيض يتناول بشكل من التدقيق أهم عناصر ومكونات الثقافة الشعبية للمجتمع التبسي باعتبارها جزءً من التنوع التراثي الشعبي الحضاري للمجتمع الجزائري، ومن ثم تناول أدوارها في تأصيل الهوية الثقافية المجتمعية أولاً، وفي تحقيق التنمية الاجتماعية لأفراده فيما بعد.

الكلمات المفتاحية: *التحليل الأنثروبولوجي، التحليل الإثنولوجي، الثقافة الشعبية، الثقافة المادية وغير المادية، المجتمع التبسي، الهوية الثقافية.*

Abstract

The cultural structure of any human society is determined by a number of social and cultural determinants, which in its entirety constitute the rules of its cultural identity, and the value it entails from a value-based and customary system agreed upon by the members of society.

The popular culture is one of the most important components of the value and social construction of society, and the material and non-material compounds that are in essence the memory and the common collective present of individuals and groups.

In this paper, we will attempt to present a comprehensive account of the main elements and components of the popular culture of the Tunisian society as part of the cultural heritage of the Algerian society, and then their role in establishing the cultural identity of the community first and in achieving the social development of its members.

Keywords*: Anthropological analysis, ethnological analysis, folk culture, material and intangible culture, tebessian society, cultural identity.*

[1] **المؤلف المرسل**: مراح نور الهدى، **الإيميل**: *nourelhouda.merah@univ-tebessa.dz*

مقدمة

تعتبر الثقافة الشعبية جزءً من الموروث الشعبي وتاريخ الشعوب، فهي المحتوى الذي تستمد منه انتماءها وتقاليدها وأصالتها ولغتها وقيمها وأفكارها وطقوسها وممارستها، وأسلوب حياتها الذي يعبر عن ثقافتها وهويتها المجتمعية، وإحدى الركائز الأساسية في عملية التنمية والتطوير والبناء، والمكون الأساسي في صياغة الشخصية الاجتماعية، كما أنها تمثل محورا أساسيا في عملية التنمية الاجتماعية، ولهذا فإن كثير من الباحثين الأنثروبولوجيين والمختصين بهذا المجال اهتموا بجمع التراث الشعبي وكل ما يتعلق بالثقافة الشعبية كل حسب منطقته والثقافة السائدة بها، وذلك لدراسة التراث حسب طرق مختلفة، فتطرقوا لجذور التراث الأصيل من منبعه سواء كان الفولكلور الشعبي، الأغاني الشعبية، الألبسة والمأكولات الشعبية، الألعاب الشعبية، العمران، اللغة واللهجة ..و غيره، وذلك عن طريق عمليات جمعه والاحتفاظ به وعدم تهميشه خاصة في ظل التغيرات الاجتماعية العالمية وتأثيرات العولمة على الهويات الثقافية المجتمعية بشكل مباشر ولأجل أهداف معينة.

والجزائر كغيرها من مجتمعات العالم الثالث تملك من الإرث الثقافي المتنوع (المادي وغير المادي) ما يجعل الدراسات في الحقل الأنثروبولوجي تولي اهتماما متزايدا بها، ولاسيما محاولتنا البحثية هاته التي انتهجنا خلالها المنهج الوصفي أو ما يسمى بالمنهج الإثنولوجي الملائم لطبيعة هذا الموضوع، محاولين تحديد مفهوم الثقافة الشعبية عن طريق التحليل الإثنولوجي من جميع جوانبه المرتبطة بإنسانية الإنسان كإنسان، وبثقافته ووجوده، مع صياغة تحليل أنتروبولوجي للمحتوى الثقافي للمجتمع التبسي كجزء و نموذج ممثل للثقافة الشعبية العامة ضمن المجتمع الجزائري، من خلال عرض بعض المظاهر المتوارثة عبر الماضي، والتي لا تزال راسخة في حاضر هذا المجتمع، ثم إبراز دورها في تأصيل وتعزيز الهوية الثقافية، وأيضا دورها التنموي فيما بعد.

ونظرا لمحدودية زمن الدراسة وكبر المجتمع الأصلي للبحث (ولاية تبسة) فقد وقع الاختيار على ثلاثة بلديات من ولاية تبسة بلدية الحمامات، المريج، الشريعة وقد تم اختيار عينة الدراسة اختيارا قصديا وذلك لسهولة الاندماج مع أفراد المجتمع المدروس عن طريق المعايشة والملاحظة بالمشاركة، وذلك لأن الباحث جزء من أفراد هذا المجتمع هذا من جهة، و من جهة أخرى أن هاته العينة ممثلة إلى حد ما التركيبة الثقافية لمجتمع الدراسة (ولاية تبسة).

إشكالية الدراسة

تعتبر الثقافة الشعبية جزءً من تراث الشعوب، وتمثل ركيزة أساسية من ركائز هويتها الثقافية، ومصدر ذاتها الحضارية، ويمثل التراث الثقافي للأمم منبعا للإلهام ومصدرا حيويا للإبداع المعاصر ينهل منه فنانوها وأدباؤها وشعراءها، لتأخذ الإبداعات الجديدة موقعها في خارطة التراث الثقافي، وتتحول إلى تراث يربط بين حاضر الأمة وماضيها، ويعزز حضورها في الساحة الثقافية العالمية.

وليست الثقافة الشعبية معالما وصروحا وآثارا فحسب، بل هي أيضا كل تعبير غير مادي، من فلكلور وأغاني شعبية وموسيقى وحكايات وألعاب ومعارف تقليدية تتوارثها الأجيال عبر العصور، وأيضا التعبيرات المادية: من أواني وحلي وملابس، ووثائق وكتابات جدارية وغيرها.

وتختلف ثقافة الشعوب باختلاف العادات والتقاليد المتوارثة، فالإنسان كما تؤكد مقولة ابن خلدون ابن عوائده وهي الفكرة التي رددها كارل ماركس بعده بخمسة قرون بقوله الإنسان هو منتوج بيئته(1)، وبالتالي يعد سجين ثقافة مجتمعه بإرادته واختياره، فهي تعبر إذن عن هويته وذاته.

ومع سيرورة التغير الاجتماعي وامتزاج الثقافات وظهور ما يعرف بالعولمة والتطور والتنمية في مجالات اجتماعية مختلفة، أين تخلت بعض الشعوب عن عاداتها وتقاليدها، وبالتالي تعرضت هويتها للإستيلاب، نحاول أن نرى مدى تمسك المجتمع التبسي عينة موضوع بحثنا كجزء من المجتمع الجزائري بثقافته وموروثه لأجل تأصيل ثقافته الشعبية أولا، ثم انعكاس ذلك على واقع التنمية الاجتماعية لديه، وعليه سنتناول خلال طرحنا الإشكالي السؤال الآتي: فيما تتمثل الثقافة الشعبية؟ وإلى أي مدى تساهم الثقافة الشعبية في تأصيل الهوية الثقافية عند مجتمع الدراسة، و ما هو انعكاس ذلك على واقع التنمية الاجتماعية لديه؟

1. قراءة تحليلية لمفاهيم الدراسة

أولاً: مفهوم الثقافة الشعبية

- الثقافة: هي في الأصل (ثقف) والتي تعني صار حذقا فطنا، وثقف الإنسان أدبه وهذبه وعلمه، ثم نحتت كلمة ثقافة وقصد بها العلوم والمعارف والفنون التي يطلب الحذق فيها(2) وعرفت أيضا بأنها كل انجازات العقل البشري بل كل ما يصدر عن الإنسان من قول أو فعل، وكذلك ما اكتسبه الإنسان من عادات وتقاليد وأساليب للسلوك وقيم تسود المجتمع(3).

عرفها إدوارد تايلور بأنها ذلك المركب الذي يشمل على المعرفة والعقائد والفن والقانون والأخلاق والعرف وكل العادات والتقاليد التي يكتسبها الإنسان من حيث هو عضو في المجتمع(4). أما مالينوفسكي فيرى أن الثقافة تشمل الحرف الموروثة والعمليات الفنية والأفكار والعادات والقيم، وفي تعريف آخر يقول مالينوفسكي: أن الثقافة هي الكل المتكامل الذي يشمل سلع المستهلكين والمواثيق التي تتعاهد عليها الجماعات المختلفة والأفكار والحرف الإنسانية والمعتقدات والأعراف. و نجده في تعريف آخر يقول بأن الثقافة في حقيقة الأمر هي كل ما يتعلق بعملية تنظيم البشر في جماعات دائمة.

وتعرفها روث بنديكيت بأنها ذلك الكل المعقد الذي يشتمل على كل العادات المكتسبة من قبل الفرد بوصفه عضوا في المجتمع. والثقافة عند الأوربيين في القرن 17 م بمعنى العمل على الأرض، وفي القرن 18 بمعنى التطور الفكري للفرد، وفي أواخر القرن استخدم اللفظ بمفهوم التقدم الفكري والاجتماعي العام للإنسان(5). والثقافة عند العرب هي القيم المادية والاجتماعية لأي شعب سواء كان متمدنا أو متوحشا(6).

ويرى مالك بن نبي أن الثقافة هي المحيط الفكري والسيكولوجي والاجتماعي الذي يكتنف الوجود الإنساني في المجتمع، ويزوده بالخبرة المعرفية والسلوكية التي تشكل طابعه وشخصيته، وتحكم علاقته بعد ذلك.

وخلاصة القول فإن الثقافة من وجهة النظر الأنثروبولوجية هي مجمل التراث الاجتماعي، أو هي أسلوب حياة المجتمع وعلى ذلك فلكل شعب في الأرض ثقافة، وبمعنى أن له أنماط معينة من السلوك والتنظيم الداخلي لحياته، والتفكير والمعاملات التي اصطلحت عليها الجماعة في حياتها، والتي تتناقلها الأجيال المتعاقبة عن طريق الاتصال والتفاعل الاجتماعي، وعن طريق الاتصال اللغوي والخبرة بشؤون الحياة والممارسة لها"([7]).

- الشعبية: هذا المصطلح يمثل موضوعا لعدد من الدراسات الأنثروبولوجية، وتكاد تتفق هذه الدراسات حول مفهوم الشعبية، وما يشيعه من دلالات مختلفة، فالشعبية صفة مشتقة من مصطلح الشعب الذي ألهمها المادة والروح من حيث الطرح اللغوي الشكلي والدلالي والرمزي، فالشعبية صفة لكل ما يصدر عن الشعب قولا وممارسة وسلوكا وتصورا للحياة والأشياء ويندرج ضمن هذه الدائرة المفاهيمية لمصطلح الشعبية كل ما هو موجه للاستهلاك الشعبي سواء كان ماديا أو معنويا([8]).

إذن **الثقافة الشعبية** هي الثقافة التي تمثل الشعب والمجتمع الشعبي، وتتصف بامتثالها للتراث والأشكال التنظيمية الأساسية، ويذهب الأنثروبولوجيين الأوربيين إلى أن الثقافة الشعبية في أوربا هي ثقافة ذات طابع قديم، والثقافة الشعبية ليست الثقافة التي أنتجها الشعب، وإنما هي تلك التي قبلها الشعب وتبناها وحملها، فكان الاهتمام بالثقافة الشعبية منصبا على مخزون الحكايات والأساطير والملاحم والفنون الشعرية والسردية بوصفها مخزونا ثقافيا للهوية الاجتماعية على مر الفترات التاريخية([9]).

وترتكز الثقافة الشعبية أساسا على قاعدة المشافهة، وهي مدونة في أفكار الناس وذاكرتهم، وهذا العنصر يمنحها في نفس الوقت تجذرا متميزا يجعل الأجيال تتناقل آدابها جيلا بعد جيل، وكذلك فرصة الإضافات والتغييرات والتشويهات والتحريفات و الإحتواءات، ومن هنا تأتي صعوبة البحث للشخص الذي يريد تدوينها أو دراستها([10]).

ولقد حازت الثقافة الشعبية في شقها الشفوي على اهتمام بالغ من قبل علماء الأنثروبولوجيا أمثال"سابير" و"تيت" الذين رأوا أن الحكايات الشعبية والأساطير تحمل في طياتها معلومات يمكن الوثوق والاستدلال بها في غياب الوثائق والسجلات المكتوبة([11])، وهناك من اتخذ من ذلك موقفا مغايرا، إذ رأى من الصعب الوثوق في هذه العناصر، في حين يرى "باير" أن الثقافة الشعبية مصدر أساسي لمعرفة تسارع الفكر العلمي الإنساني لأي شعب وذلك بناءً على دراسته لأساطير "اليوريا" إذ توصل لمعرفة أسلافهم وطريقة عيشهم، وهنا يرى أن الفولكلور هو التراث وهو جزء لا يتجزأ من الثقافة الشعبي([12]).

خصائص الثقافة الشعبية:

- الإلتزام: هو ذلك التتبع والتقيد بمجموعة المعايير والعادات وطرق التصرف التي تفرضها علينا الثقافة، وذلك من خلال مراحل التنشئة الاجتماعية منذ الصغر.

- التلقائية: أن الثقافة الشعبية عملية تلقائية وغير واعية، لأن أساسها المحاولة العشوائية في سد وإشباع الحاجات الطبيعية الضرورية، والتي تتحول مع الوقت إلى عادات فردية وجماعية، والتي اعتبرها " دوركايم " من نتاج العقل الجمعي، فهي مستقلة عن غيرها من الظواهر الاجتماعية لأنها من صنع الأجيال السابقة.

- غير مدونة: وهي مسألة طبيعية كون المجتمع لا يتصدى لبناء ثقافته الشعبية، وعاداته وتقاليده بعمل شعوري واع لذلك هو لا يدونها، وإذا أردنا الوقوف عندها فهي في الذاكرة الجماعية محفوظة ويتم تناقلها بدقة متناهية.

- الإستمرار والثبات: نقصد بهذه الخاصية الثقافة من جيل إلى آخر، دون تغيير أو تحريف في الأسلوب العام مع قابلية نسبية للتعدي، وذلك تبعا لظروف جديدة مبنية على فعاليات مقصودة.

- الجاذبية: تبقى الثقافة مقبولة ومرغوبة، بالرغم مما فيها من إلزام وقهر، فهي تنطوي على ما تواضع عليه أفراد الجماعة من أفعال سلوكية، هذه الخاصية تفسر مدى اختلاف الثقافات باختلاف الجماعات، بل وحتى ضمن المجتمع الواحد.

ثانيا: مفهوم الهوية الثقافية

تستعمل كلمة الهوية من حيث الدلالة اللغوية في الأدبيات المعاصرة لأداء معنى الكلمة الفرنسية identité التي تعبر عن خاصية المطابقة، أي مطابقة الشيء نفسه أو مطابقته لمثله([13]). يعرفها ابن رشد الهوية تقال بالترادف على المعنى الذي يطلق عليه اسم الموجود، وهي مشتقة من الهو، كما تشتق الإنسانية من الإنسان([14]).

و الهوية دائما جماع ثلاثة عناصر: العقيدة التي توفر رؤية للوجود، و اللسان الذي يجري التعبير به، والتراث الثقافي الطويل المدى([15])، كما أن اللغة هي التي تلي الدين كعامل مميز لثقافة شعب ما عن ثقافة شعوب أخرى([16])، تثم يأتي التاريخ و عناصر الثقافة المختلفة في صنع الهوية.

إذن الهوية تمثل الخصوصية التي تميز جماعة بشرية عن غيرها: كالعيش المشترك، العقيدة، اللغة، التاريخ، و المصير المشترك، ومن هنا فإن الهوية الثقافية تحمل دلالتها من المحددات الأساسية لثقافة الأمة، و التي عبر عنها مونتيسكيو بـ: " روح الأمة " لأنها تمثل رمز وحدتها و استمراريتها، بحيث تتفاعل عناصر هاته الهوية ضمن هوية مركزية أو أرضية مرجعية frame reference تتحدد وفق مرجعيات الثقافة الوطنية.

والهوية في مفهومها الاصطلاحي، تناولها علماء النفس والاجتماع والأنثروبولوجيا، ونظرا للزخم الهائل من التعاريف التي تتقاطع مع النفسانيين والاجتماعيين والأنثروبولوجيين، فإن هناك تعريفات ملمة بعض الشيء لهدفنا من هذا الموضوع ومنها: " الهوية هي مجموعة من المميزات الجسمية والنفسية والمعنوية والاجتماعية والثقافية التي يستطيع الفرد من خلالها أن يعرف نفسه، وأن يتعرف الناس عليه، أو التي من خلالها يشعر بأنه مقبول ومعترف به كما هو من طرف الآخرين أو من طرف جماعته أو الثقافة التي ينتمي إليها([17]).

و حسب الجابري: الهوية الثقافية كيان يصير و يتطور، و ليست معطى جاهز نهائيا، تصير و تتطور إما في اتجاه الانكماش، وإما في اتجاه الانتشار، و هي تعتني بتجارب أهلها ومعاناتهم و تطلعاتهم، وأيضا باحتكاكها سلبا و إيجابا مع الهويات الثقافية الأخرى التي تدخل معها في تغاير من نوع ما([18]).

و ذكرت المنظمة العربية للتربية و الثقافة و العلوم أن الهوية الثقافية هي النواة الحية للشخصية الفردية والجماعية والعامل الذي يحدد السلوك ونوع القرارات و الأفعال الأصيلة للفرد و الجماعة و العنصر المحرك الذي يسمح للأمة بمتابعة التطور و الإبداع مع الاحتفاظ بمكوناتها الثقافية الخاصة ومميزاتها الجماعية، التي تحددت بفعل التاريخ الطويل واللغة القومية والسيكولوجية المشتركة وطموح الغد([19]).

كما نجد مفهوم الهوية متعلقا بمفهوم الثقافة في مجال التعريفات التي تناولته، فهو مفهوم ثقافي تاريخي يتكون لدى الفرد من خلال الثقافة التي يحيا بها، فدورها بكل ما تحمله من معاني هو تكريس هوية ثقافية من خلال عملية تمثيل عاطفي واجتماعي مع عملية اندماج تاريخية وثقافية ونفسية واقتصادية تستغرق زمنا طويلا مما يؤكد أهمية التاريخ، فيتنج الهوية الثقافية بصفته الرحم الذي تنمو وتترعرع فيه لتشكل في نهاية المطاف هوية ثقافية معينة نتيجة انتمائها لأمة معينة، وبذلك فإن التراكم التاريخي ضروري لصنع الهوية الثقافية لأنها في النهاية هي المستوى الذي بلغته المجموعات البشرية نتيجة تفاعل قرون طويلة بين أفرادها وبين الظروف الطبيعية التاريخية التي مرت بها والتي نسجت فيها بينها روابط مادية وروحية مشتركة أهمها وأعلاها رابطة الدين واللغة.

محددات الهوية الثقافية الجزائرية:

هناك عدة عوامل تاريخية محلية وعالمية ساهمت في بلورة ثوابت معينة للهوية الجزائرية تتمثل في ثلاث محددات: الدين الإسلامي، اللغة العربية، الأصل الأمازيغي، فلكل مجتمع خصوصيته الثقافية التي تشكل هويته الذاتية ويسعى جاهدا للمحافظة عليها وصيانتها من الإندثار تحت وطأة وهيمنة الخصوصيات الثقافية للمجتمعات الأخرى، فالخصوصية الثقافية تعني عناصر خاصة بمجموعة اجتماعية معينة([20]).

و المجتمع الجزائري يعيش داخل فسيفساء من التعدد الثقافي، فهو مجتمع عربي إسلامي أمازيغي متوسطي إفريقي عالمي، يجمع بين المعربين والمفرنسين، يجمع بين الشاوية والقبائلية والميزابية والتارقية، غير أنه رغم هذا التعدد الثقافي يظل يحيا داخل مجتمع واحد وموحد ومتضامن ومتماسك تحت لواء العروبة والإسلام والأصل الأمازيغي.

ثالثا: مفهوم التنمية الاجتماعية

يشتق مصطلح التنمية في اللغة العربية من لفظ (نمّى) بمعنى الزيادة والانتشار، وعليه فالتنمية Development تعني التغيير الجذري للنظام القائم واستبداله بنظام آخر أكثر كفاءة وقدرة على تحقيق الأهداف. التنمية الاجتماعية إذن تهدف إلى تطوير التفاعلات المجتمعية بين أطراف المجتمع: الفرد، الجماعة، المؤسسات الاجتماعية المختلفة، المنظمات الأهلية.

كما تعني النمو المدروس على أسس علمية والذي قيست أبعاده بمقاييس علمية سواء كانت تنمية شاملة ومتكاملة أو تنمية في أحد الميادين الرئيسية، ويمكن القول أنها عملية تغيير اجتماعي مخطط يقوم بها الفرد للانتقال بالمجتمع من وضع إلى وضع أفضل، وبما يتفق مع احتياجاته وإمكانياته الاقتصادية والاجتماعية والفكرية([21]).

الأمم المتحدة عرفت التنمية بأنها العملية التي يمكن من خلالها توحيد جهود المواطنين والحكومة لتحسين الأحوال الاقتصادية والاجتماعية والثقافية في المجتمعات المحلية ولمساعدتها على الاندماج في حياة الأمة والمساهمة في تقدمها بأقصى قدر مستطاع([22]).

التنمية الاجتماعية تشتمل على النمو والتغير، والتغير بدوره اجتماعي وثقافي كما هو اقتصادي، وهو كيفي كما هو كمي، والتنمية الاجتماعية لا تعني جانبا واحدا كالجانب الاقتصادي أو السياسي، وإنما تحيط بكافة جوانب الحياة على اختلاف صورها وأشكالها فتحدث تغيرات كيفية عميقة وشاملة([23]).

التنمية الاجتماعية عملية مخططة وشاملة تركز على عملية تغير اجتماعي واقتصادي تلحق بالبناء الاجتماعي ووظائفه، وتسعى لإقامة بناء اجتماعي جديد يمكن عن طريقه إشباع الحاجات الاجتماعية للأفراد وتحقيق الرفاهية والسعادة لأبناء المجتمع، والعمل على إزالة العقبات والمعوقات التي تقف حائلا دون تحقيق التنمية الاقتصادية ومعالجة المشكلات والسلبيات التي قد تصاحبها.

2. تحليل إثنولوجي لأدوار الثقافة الشعبية في تأصيل الهوية الثقافية للمجتمع التبسي

يرجع تسمية تبسة إلى الأصل البربري الذي أطلقه عليها سكانها الأصليون ، والذي يعتقد حسب الترجمة اللوبية أنها تعني اللبؤة، ثم حرف الرومان إسمها فصارت تسمى تيفيسيتيس، و قد أختصرت كل الزيادات اللفظية منها لتعرف بعد ذلك ب: تيفست، و بعد الفتح الإسلامي أصبحت تعرف ب تبسة بفتح التاء و كسر الباء و فتح السين مع تشديده أيضا، وظلت هاته التسمية ملازمة لها إلى اليوم([24]).

يتميز المجتمع التبسي بميراثه الثقافي المادي واللامادي في آن واحد فهو يحمل في طيات كل هذا التراث العريق تنوعا ذو تفرعات عديدة، فالتاريخ المكتوب والشهادات الواردة من الباحثين والعلماء الاجتماعيين والأنثروبولوجيين تبرهن عن ذلك، فاعتمادا على هذه المعايير الملموسة واعتبار تمسك المجتمع التبسي بقيمه الأصيلة وانتمائه الثابت لبلده يجعل من الواجب الرجوع إليه وتبنيه وحماية تراثه الغني وتقويمه.

والتراث الثقافي الشعبي لمدينة تبسة يعتبر جزء لا يتجزأ من هويته الثقافية، فالتعابير الثقافية التقليدية والشعبية تولد الشعور بالانتماء والاستمرارية ضمنه.

وللتعمق أكثر في معرفة خصوصية الثقافة الشعبية للمجتمع التبسي أجرينا دراسة ميدانية أنثروبولوجية في ثلاث مناطق بولاية تبسة بصفة قصدية لكل من بلديات: الشريعة، الحمامات، المريج. باعتبارها ممثلة إلى حد ما مجتمع الدراسة الكلي و هو ولاية تبسة، وذلك لرصد العادات والتقاليد التي تتميز بها منطقة تبسة وهذا بسبب تنوع الأعراش فيها، وذلك من خلال حضور مناسبات موسمية ويومية وخاصة التي تعبر عن العادات والتقاليد الخاصة بالجانب الاجتماعي والثقافي والديني والاقتصادي، ومن هنا سنحاول التغلغل في ثقافة المجتمع التبسي التي تعبر عن هويته.

أولاً: ثقافة العادات والتقاليد

تعد الثقافة العنصر الهام الذي ساعد في إيجاد العادات والتقاليد في ولاية تبسة، والتي أصبحت تشكل جزء كبيرا من اهتمامات المجتمع التبسي، وأصبح أفراده يعملون على ثبات واستمرارية بهذه العادات والتقاليد، ومن أهم الأسس التي ساعدت على الحفاظ على العادات والتقاليد ما يلي:

الأسرة: "تعتبر الأسرة ظاهرة عامة في كل المجتمعات الإنسانية، فليس هناك مجتمع بدون أسرة، وهي البوتقة التي تحيط بالفرد منذ ميلاده لتزويده بالقيم والمبادئ التي تساعد على التكيف مع المجتمع"([25]). وقد شكلت الأسرة في المجتمع التبسي ركيزة كبيرة في بناء المجتمع، وذلك بنوعيها الأسرة النووية والأسرة الممتدة التي "تتسع للآباء والبنين والحفدة جميعا فيعيش الكل تحت سقف واحد"([26]).

ويمكن القول أن العادة مازالت سارية في مجتمع الدراسة، وهذا ما جعل المجتمع التبسي متماسكا.

الزواج في المجتمع التبسي: يعتبر الزواج في الجزائر عامة وتبسة خاصة "مؤسسة مقدسة في الإسلام وهدفه الرئيسي إضفاء الشرعية على العلاقة بين الجنسين"([27]). ويعد أيضا مؤسسة اجتماعية مهمة لها نصوصها وأحكامها وقوانينها وقيمها التي تختلف من حضارة إلى أخرى([28]).

وعرف الزواج عبر تاريخ البشرية الحافل بالتغيرات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، أشكالا مختلفة وأنماطا متباينة، ودلت الدراسات الأنثروبولوجية المبكرة على وجود أشكال مختلفة للزواج، وتعتبر ولاية تبسة معبرا لحضارات مختلفة بين المشرق والمغرب مما أثرى رصيدها الحضاري والثقافي بموروث ثقافي متنوع، تضرب جذوره عمق ما قبل التاريخ ولهذا فهي تزخر بتراث ثقافي معنوي ومادي يجتمعان في كل منطقة من مناطق الولاية، ويتنوع بتنوع الأعراف والتقاليد التي تمتلكها هذه المنطقة والمصبوغة بهويتها المتصلة بالعرف، اللغة، التقاليد ومن هذه العادات العرس التقليدي في منطقتي الشريعة والمريج وحتى الحمامات، و الذي يتم وفق المراحل الآتية:

- تعارف العائلتين: وهذا قصد طرح موضوع الزواج بالقبول أو الرفض ومن ثم تحديد موعد تلاقي العائلتين قصد الخطبة الشرعية.

- الخطبة: وهي من أهم خطوات الزواج حيث يتوجه أهل العريس لبيت العروس ويتم طلب يدها رسميا من أهلها، يرحب أهل العروس بأهل العريس والقيام بكرم الضيافة عن طريق وضع بعض المأكولات التقليدية من تمر وحليب ولا ننسى القهوة قبل الشروع في الموضوع الأساسي ويبدأ ولي العريس بقول العبارة التالية" جيناكم بالحسب والنسب نخطبو بنتكم فلانة لابننا فلان بن فلان" ويكون الرد من طرف ولي العروس" قبلنا ورضينا بوليدكم فلان يكون نسيبنا"

- تحديد المهر: بعد كلمة القبول يشرع ولي العروس بتحديد مهر ابنته والمتمثل في قطعة من الذهب أو الفضة أو الصوف.

- العقد في البلدية: ويكون بحضور ولي العروس والعريس وذلك لإبرام عقد الزواج في دار البلدية بعدها يكون الزواج موثقا بوثيقة رسمية تتمثل في عقد الزواج.

- العيدية أو المهيبة: ففي كل عيد مثل عيد المولد النبوي الشريف، عيد الفطر، ليلة القدر، عيد الأضحى، يتوجه أهل العريس لعروسهم مصطحبين معهم هدايا وأكلات تقليدية وأموال لعروستهم وتسمى بالعيدية أو المهيبة.

- قراءة الفاتحة "العقود بعد استكمال شروط الخطبة ترفع الأيادي لقراءة الفاتحة من طرف إمام المسجد وتحديد موعد الزفاف مع تلاوة شروط العروس ثم يطلق البارود.

- فترة العرس: اليوم الأول يسمى بيوم الكبش يسير مشايخ أهل العريس إلى أهل العروس من نسوة ورجال مرفوقين بالكبش ملفوف على رقبته "محرمة خضراء" ولواحقه وتسمى بالعامية " قضْية الكبش" وبعدها يشرع بذبح الشاة.

- اليوم الثاني "الكِسْوة": وهي عبارة عن مجموعة من الألبسة ولوازم العروس مرفوقة بطاقم الحنة، تعلق الألبسة في بيت العريس ليلة يوم الكبش قصد رؤيتها من قبل أهله ثم يتوجه أهل العريس إلى بيت العروس في موكب متكون من نسوة ورجال مع الزغاريد والطواحي والبارود، تقوم عجوز من أهل العريس برمي قطعة من الملابس على العروس ومثال ذلك" خمار أو قندورة "ثم تقوم بوضع قطعة لويز في يدها ثم وضع الحنة عليها ثم ترمي الحلوى أو ما يسمى " بالقَشْقَشَة على رأس العروس.

- اليوم الثالث أو مايسمى "بالكورتاج أو ليلة الدخلة" تحضر العروس نفسها للذهاب إلى بيت زوجها بعد تزيينها بلباس أبيض ووضع اللحاف أو السفساري عليها، ويأتي أهل العروس بموكب من السيارات ويسمى بالكورتاج يتبعه الفرسان بالخيل وطلقات البارود، وذلك لأخذ العروس لبيت عريسها وعند دخول العروس لبيت زوجها تستقبل بالبارود ومجموعة من النسوة يؤدون غناء الطواحي([2]) وتضع أم العريس وأخته يد العروس في فنجان به" دهان" وتمسح به أعلى الباب ووضع ملعقة عسل في فمها لتكون العروس مباركة على أهل بيتها ثم تأكل التمر وتشرب الحليب.

- اليوم الرابع: يوم الفطور أو الصباحية: وهو يوم مجيء أهل العروس مرفوقين ببعض المأكولات التقليدية كالطمينة والمسفوف، وتقوم العروس بتزيين نفسها لاستقبال أهلها ويأتي أحد إخوة العريس لوضع الحزام لزوجة أخيه، ومن جهة أخرى يحضر أهل العريس أكلة شعبية "الرفيس والعصيدة".

الختان: من التقاليد المتوارثة يعلقون الراية ذات ألوان العلم الوطني على سطوع المنازل أو داخل البيت للدلالة على وجود ختان أو مايسمى "بالطُهور" في هذا المنزل، مع صنع مجموعة من "الجلاب" (وهو متكون من ثلاثين سرة لمادة الملح والكمون الأسود المربوطة بالخيط الأخضر والأحمر)، كما هناك بعض الأسر تحتفل بالختان ليلة القدر مع بعض الأهازيج والأغاني، وتقوم الأم بتلبيس ابنها قميص أبيض أو ما يسمى "بالقِدْوارَة" مع برنوس وحذاء "البْلِيغَة" و تحنى له يده وقدميه.

([2])عبارة عن أغاني شعبية (ذات دلالة ثورية و رومانسية) تؤدى بدون إيقاع موسيقي.

المناسبات والأعياد: فبالرغم من المشاكل و الصعوبات المالية والاجتماعية وبالرغم من اقتحام نماذج احتفالية جديدة، فان العائلة التبسية تصر وتؤكد على ضرورة الاحتفال بها، فالناظر لسجل الأعياد والاحتفالات المحلية التبسية يترك المرء يحس بمعنى العيد ومعنى الاحتفالية في الذاكرة الشعبية التي تحتفظ بجغرافية زمانية وثقافية واجتماعية لكل عيد ولكل حفلة ومنها: عيد الفطر، عيد الأضحى، يوم عاشوراء، ليلة المولد النبوي الشريف، الولادة، الأسبوع، العقيقة، الختان، الخطوبة.

- ويعتبر الاحتفال بالأعياد من القيم الثابتة للحياة الاجتماعية المحلية حيث للعيد نكهة خاصة يدعو الناس التوقف عن العمل ويدفعهم إلى التمتع و الاحتفال بالعلاقات الاجتماعية خارج إطار العلاقات الاقتصادية، لدلك فالشحنة المعنوية التي يتمتع بها العيد حاجة إنسانية يشعر الناس عفويا بضرورة التمسك بها"[29].

- إن ظاهرة الاحتفال بالأعياد وتخليدها تعد محطة اجتماعية ونفسية وثقافية ضرورية في حياة المجتمع التبسي التي تعلن من خلالها انتماءها الديني العقائدي، لأن أغلب هذه الأعياد طبعت العائلة نفسها بطابع ديني مقدس.

- ومن العادات والتقاليد التي لا زالت متوارثة في المجتمع التبسي أنهم يومي عيد الفطر والأضحى ترفع التكبيرات في المساجد، أما في عيد المولد النبوي الشريف يسمع صوت القصيد على سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة و التسليم في كل منطقة من تبسة، و هذا يدل على أن مجتمع الدراسة متمسك ومتشبث بكل التقاليد والعادات التي تربطه بالدين الإسلامي الحنيف.

- و من العادات و التقاليد التي توارثها وما زالت في المجتمع التبسي لليوم هي فرحة الأطفال يوم ليلة القدر حيث يحيونها بالشموع، أما العائلات فيحتفلون المناسبة بأكلات شعبية كالشخشوخة والكسكسى.

- وفي فصل الربيع في منطقة النمامشة فيحتفلون بقدومه مثل المناطق الأخرى للوطن، ولكن كل واحد حسب عاداته وتقاليده الخاصة، فمنطقة تبسة تحتفل بدخول الربيع بإعداد مأكولات و حلويات شعبية مثل "المبرجات والطمينة (الملتوخة)".

- أما الاحتفال بيناير يكون بطهي أكلات شعبية مثل "الشخشوخة والكسكسى و الرفيسة " أو البركوكس الذي يسمى في المنطقة بالبركوكش.

ويعتبر الاحتفال بعيد الربيع و يناير في المنطقة كمادة ثقافية أمازيغية قديمة متوارثة وهذا يؤكد بأن الذاكرة الشعبية لها دور بارز في الحفاظ على ثقافتنا والموروث الشعبي المشترك.

ثانيا: ثقافة المعتقدات

من خلال البحث في معتقدات المجتمع المدروس نجد أنه متمسك بالدين الإسلامي و مسلماته العقائدية وأهمها الايمان بالله و الرسالة المحمدية، كما كان لهم في القديم معتقدات شعبية متوارثة وظاهرة في حياتهم اليومية، كاعتقادهم بوجود الجن والشياطين الذي يؤثر على الإنسان فكانوا يتوجهون إلى الطالب والشوافة والقزانة، لاعتقادهم أن لديهم قدرة على فك السحر، ومن هنا يمكن دراسة هذه المعتقدات من خلال الدخول إلى

مجتمع البحث وتسليط الضوء على هذه المعتقدات ومعرفة إن كان مفعول هذه المعتقدات لا يزال ساريا في نفوس أفراد المجتمع التبسي أم أن هذه المعتقدات قد فقدت فاعليتها؟

الزوايا في مدينة تبسة: ومن أشهر الزوايا في مجتمع البحث زاوية سيدي يحيى بن طالب والذي يقع ضريحه في منطقة المريج في الحدود الجزائرية التونسية، ومن الطقوس المتوارثة في المنطقة هي زيارة ضريح الولي الصالح سيدي يحيى بن طالب للتبرك وتقديم الهدايا المختلفة وإشعال الشموع وقراءة القرآن على روحه وتقديم القرابين، ومنه فالزوايا لها دور بارز في مجتمع الدراسة وقد ظهر نشاطها أكثر في عهد الاستعمار.

الوعدة أو الزردة: وهي احتفال طقوسي اجتماعي في أعماقه، وتشكل الوعدة من جمع كبير من أناس جاءوا للتبرك وأداء طقوس العبادة وذلك لتعبير عن ودهم لوليهم الصالح، فتقام الطقوس بالطبول والإنشاد من طرف مجموعة من الرجال، أما البقية فتردد وتارة أخرى تسمع، والملاحظ أن هذه المعتقدات قد تلاشت تقريبا مع الجيل الجديد وبقيت فقط مع كبار السن.

ومن أشهر الوعدات بولاية تبسة زردة سيدي يحيى بن طالب، حيث تقام الوعدة في منطقة في ولاية تبسة بعدة مناطق أهمها بلدية المريج، وهذه الزردة تقام سنويا بحضور قوي للمشاركين والزوار من كل ولايات البلاد وحتى من خارج البلاد تونس وليبيا، حيث يتفنن المشاركون في استعراض ما لديهم من حكم وأمثال واستعراضات وأكلات شعبية تعبر بالدرجة الأولى عن الحياة اليومية، وما يزيد في وصف هذه التظاهرة الثقافية استعمال القصبة والبندير وألعاب الفرسان وحضور العديد من الشعراء بقصائد مختلفة، وبهذا فإن الوعدة لها أثر كبير في نفوس بعض الناس المؤمنين بها في منطقة الدراسة ولهذا بقيت متوارثة ومتسلسلة عند الأجيال المختلفة.

ثالثا: ثقافة القصص والأمثال والحكم

إن المتتبع لثقافة المجتمع التبسي يلحظ ولوع أهلها بالقصص الشعبي حيث توارثوا روايته أبا عن جد، فإلى زمن قريب كان هذا القصص يقوم بدور تربوي ونفسي بالغ الأهمية، وقد لوحظ نتيجة لهذا الوله مدى ثراء وتنوع التراث الشعبي القصصي، فكان ينتقل مشافهة بين أبناء المجتمع من خلال التجمعات الشعبية، وفي مناسبات خاصة كالأعياد وحفلات الزواج والختان و في زيارة الأولياء والأعمال التطوعية، كما ينتقل من الكبار إلى الصغار، ومن الريف إلى المدينة([30]).

و بالإضافة إلى موروث القصص العبي نجد موروث الأمثال والحكم الذي له أهداف ومواعظ قيمة يصبو إلى تحقيقها وصقل عقل الإنسان وتنمية فكره وأسلوبه في الحياة، ومن بين الحكم والأمثال التي يمكن القول أنها قد ذكرت في منطقة الدراسة نذكر منها: "لا تعزيني في ولدي إذا مات، عزيني في وقت عصر الجمعة إلي فات"، " خلي أمك تموت وصلي المغرب لا يفوت"

فمن خلال هذه الحكم يتضح أن الصلاة لها دور يكمن في أنها ترفع بالإنسان عن السقوط في مستنقع الشهوات، وتنهاه عن الفحشاء والمنكر.

"لمعيز خير من الفقر، والبنات خير من لعقر"، "لاخسارة عازمة ولاربح معلول"، "مدس المداس حتى يجيك صباط جديد" فالدور الوظيفي لهاته الأمثال يكمن في الرضا بالنصيب من جهة وتحقيق الأفضل من جهة أخرى.

" خوك خوك لا يغرك صاحبك" ويتضح من خلال هذا المثل أن الأخ مهما كانت طباعه ومهما كان بعيدا لا يأخذ مكانه أحد حتى وإن كان غالي.

" إلي يبغيك ما يبنيلك قصر، وإلي يكرهك ما يحفرلك قبر" وهذا لدلالة على الإيمان بقضاء الله وقدره.

رابعا: ثقافة العمران والأماكن الأثرية

عرفت منطقة تبسة الحياة ووجود الإنسان منذ حوالي 1200 سنة قبل الميلاد، و قد ذكر عبد الرحمان الجيلاني مدينة تبسة في العصر الحجري قائلا: عرفت منطقة تبسة نوعا من التقدم البشري حيث انتقلت السكنى من المغارات إلى الأكواخ المستديرة و المربعة([31])، وفي هذا العصر أتقن الإنسان صناعة الحجارة فاتخذ منها المطاحن للرحي، و أدوات النقش، و صنع منها السهام، كما عرف الكتابة والتصوير([32]).

هذا و تعتبر ولاية تبسة ولاية من ولايات الشرق الجزائري، اشتهرت ببطولاتها التاريخية منذ العصور التاريخية السحيقة من الأمازيغ والنوميديين والرومان والوندال والبيزنطيين إلى عهد الاستعمار الفرنسي، بها أثار عظيمة لدولة النوميدية في العهد الروماني منها باب النصر والسور البيزنطي الذي يعود للحقبة البيزنطية، ومنها أيضا السور الذي يمتد على حدود المدينة والذي كان يستخدمه الرومان كحصن في حروبهم، والمدرج المسرحي و الذي شيده الرومان وقد استعمل هذا المدرج كملعب أو مسرح و أحيانا لألعاب المصارعة، ومن المعالم الدينية العتيقة في المدينة التي تتميز بهندستها المعمارية التي تحاكي فنون البناء الإسلامي العربي، وتتمثل هده المعالم في المسجد العتيق الذي يعود إلى الفترة العثمانية، ومسجد وضريح سيدي يحي بن طالب، وزاوية ومسجد سيدي عبيد الشريف، وهذا بالإضافة إلى المدن القديمة لفركان ونقرين والمدينة القديمة يوكوس بالحمامات.

أما الحمامات المعدنية التي تتوفر بالمدينة هما حمامان الحمام المعدني ببلدية الحمامات، وحمام يحي بن طالب الواقع ببلدية المريج والذي يقع على بعد 60 كلم من مقر الولاية، ويتميز هذا الحمام المعدني العتيق بطابعه التقليدي والقيمة العلاجية العالية لمياهه خاصة الأمراض الجلدية كما يتوفر فضاء ملائما للنقاهة و الراحة.

وخلافا عن المناطق الأثرية الهامة التي تحتوي عليها تبسة، فقد تم اكتشاف العديد من الآثار الرومانية في العصر الحديث منها مستحثات نعوش حجرية وأدوات و أواني قديمة ومثال ذلك الآثار الرومانية الموجودة بمنطقة قسطل في بلدية عين الزرقاء.

خامسا: ثقافة اللباس والحلي التقليدية

تشتهر منطقة تبسة بلباس الحلي والسفساري، ولكن للأسف الشديد ضاع هذا الموروث الثقافي في ظل التغيرات الجديدة، وما بقي متوارث هو لباس القشابية والقميص "القِدْوارَة" ، وقليلا ما نجد الشيوخ يلبسون البَرْنوسْ، وأشهر الفساتين اللباس الشاوي والفِرْقاني، أما الحلي في القديم كانت المرآة تتزين بمختلف الإكسسوارات المصنوعة بالفضة، أما الآن فقد اندثرت وجاء مكانها الذهب بأنواعه المختلفة.

سادسا: ثقافة الصناعات التقليدية والحرف اليدوية

تحتل ولاية تبسة مكانة رائدة في ميدان الصناعات التقليدية وذلك نظرا لتوفر المواد الأولية من صوف وخشب و جلود وطين، هذا ما جعل صناعتها التقليدية تتميز بالتنوع و الثراء من حيث الألوان والأشكال، ومن أهم المنتجات التقليدية بهذه الولاية وخاصة بلدية الشريعة هو النسيج والذي يحمل رموزا وتزيينات مستوحاة من الطبيعة كالزريبة، الحنبل، المرقوم، البرنوس، هذا بالإضافة إلى صناعة التحف التزيينية من الفخار والطين في بلدية المريج المستوحاة من الثقافة التونسية، وصناعة السروج ومعدات الفروسية في بلدية الحمامات عند السكان الأصليين .

3. تحليل أنثروبولوجي لأدوار الثقافة الشعبية في تحقيق التنمية الاجتماعية للمجتمع التبسي

يتناول التحليل الأنتروبولوجي عوامل تنمية المجتمعات ([33]) ولا يمكن لأي مجتمع أن يتطور دون تنمية اجتماعية أو اقتصادية أو ثقافية ومن خلال الدراسة لمجتمع البحث يظهر ذلك في النقاط التالية:

أولا: الثقافة الغير مادية

تعتبر الثقافة الغير مادية ترجمة للأفكار أو الآراء أمثلة ذلك المعتقدات أو القيم و المعايير التي يمكن أن تساعد على تشكيل المجتمع، ويعد الاهتمام بدراسة الطقوس والممارسات العقائدية من البحوث الأكثر شيوعا في حقل الدراسات الأنثروبولوجية، وذلك لأهميتها باعتبارها مرآة عاكسة لقضايا المجتمع، كما تعتبر أيضا حلقة وصل تربط بين التاريخ وبين الحاضر والمستقبل، وفي الواقع فإن كل موروث شعبي يعبر عن ثقافة معينة لمجتمع ما ([34]) وإن حافظو على هذا الموروث، فإنه ينتج عنه تنوع مجالات التنمية الاجتماعية في مجالات عدة.

حيث تظهر ملامح التنمية الاجتماعية من حيث العادات والتقاليد في منطقة تبسة، في قضية الأسرة وتنظيمها واجتماعها وعيشها تحت سقف واحد فهذه العادة تساهم في تنمية العلاقات بين أفراد الأسرة وحتى أفراد المجتمع، فرغم التحولات الاجتماعية والغزو الثقافي والتكنولوجي كوسائل الاتصال ومواقع التواصل الاجتماعي كالفايسبوك وغيره في القضاء على الروابط الاجتماعية بقيت ملامح التنمية الاجتماعية من خلال الزواج كنموذج في منطقة الدراسة، حيث يؤدي الزواج في كثير من الأحيان دورا تنمويا في المحافظة على النسل و التماسك البنائي للمجتمع المحلي للمنطقة، وذلك عن طريق المصاهرة التي تنتمي العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والدينية والسياسية، وكذلك تؤدي دورا تنمويا يتمثل في الاعتراف بالمولود وتسميته بلقب والده، وهذا المظهر الإنساني تشترك فيه جميع المجتمعات منذ القدم.

والملاحظ أن أفراد منطقة البحث قد تمسكوا بالتعاليم الإسلامية في قضية الزواج والتي كانت واضحة من خلال الطقوس و العادات التي ظهرت من خلال تعبيرهم عن فرحتهم بتلك الرقصات والأغاني، فالجانب التنموي في هذا المجال كان واضحا في الروابط الاجتماعية للأسر، والذي يجمعهم المكان الواحد والعادات والتقاليد والثقافة الواحدة، كما يساعد على الحفاظ على النسل وعدم تخالط الأنساب من خلال العلاقات المحرمة.

أما ثقافة الاحتفال بالأعياد والمناسبات فقد شكلت دورا تنمويا من خلال كيفية الاحتفال، كالتجمعات في المسجد يومي عيد الفطر وعيد الأضحى والمولد النبوي الشريف، وأيضا العادات والتقاليد المتوارثة بشهر رمضان والاحتفال بليلة القدر وفرحة الأطفال بهذا اليوم، فكل هذه العادات والتقاليد للاحتفال بالأعياد والمناسبات الدينية توطد علاقة التواصل بين أفراد المجتمع وتزيد من روح التعاون والحفاظ على صلة الأرحام، وهذا ما يزيد من تماسك وترابط المجتمع التبسي.

كما تظهر ملامح التنمية الاجتماعية أيضا في مجتمع الدراسة، من خلال المستوى الثقافي والاجتماعي الذي تسهم به العديد من الزوايا والقائمين عليها، حيث يقوم القائمون على هذه الزوايا بتحفيظ القرآن الكريم مع إقامة حلقات الذكر والصلح بين المتخاصمين، وهذا دليل على الدور التنموي الذي تقدمه الزوايا في التنمية الاجتماعية والثقافية.

كما نسلط الضوء أيضا على ثقافة الوعدة أو ما تسمى بالزردة حيث تظهر ملامح التنمية الاجتماعية في العروض التي يقدمها المشاركين من كل ولايات الوطن، والتي تجلب العديد من العائلات والزوار المهتمين بهذه التظاهرة الثقافية، وهذا كله يشجع على التنمية المحلية للمنطقة والتنمية العالمية لتكون منطقة سياحية، وتنظم على هامش الوعدة سوق شعبية يستغلها التجار في عرض منتجاتهم التقليدية كالحلي والألبسة التقليدية، ناهيك عن ذلك الحلويات التي تشتهر بها الوعدات كحلوة النوقة، لذلك فإنها فرصة سانحة لتجار المنطقة للربح الوفير، وهذا ما يحدث في زردة سيدي عبيد بسطح قنتيس حيث تساهم في الجانب التنموي من كل الجوانب اجتماعيا وثقافيا واقتصاديا.

أما ثقافة الأمثال والحكم والألعاب والألغاز الشعبية فتظهر التنمية الاجتماعية فيها من خلال الدور التعليمي والتربوي التثقيفي التي تؤديه في منطقة الدراسة، ومثال ذلك "لعبة الخربق ([3]) والتي تورثها الأجيال منذ قرون لحد الساعة يلعبها الصغار والكبار، ومنه فإن الألعاب الشعبية لها دور تنموي اجتماعي وفكري متوارث، لأنها تساعد على ربط الصلات الاجتماعية بين الأفراد والجماعات بتجميعهم في مكان معين، وزمان معين" ([35])

ثانيا: الثقافة المادية

يقصد بالثقافة المادية أو ما يسمى بالتراث المادي كل ما يصنعه الإنسان في حياته العامة، وكل ما ينتجه العمل البشري من أشياء ملموسة، وكذلك كل ما يحصل عليه الناس عن طريق استخدام فنونهم([36])، وهي ذات طابع تقليدي، وعلى الرغم من حلول عناصر أكثر عصرية، إلا أنها تحظى باهتمام بالغ من قبل أفراد المجتمع، ومثال ذلك الأكواخ والمغارات التي هجرها الإنسان، وحلت محلها عناصر أخرى كالمساكن والقصور والعمارات، إلا

([3]) لعبة الخربقة: وهي لعبة شعبية تقليدية فكرية تلعب بواسطة مجموعة من الحصي، وهي تشبه لعبة الشطرنج، حيث ترسم على التربة على شكل مربع كبير و يقسم إلى 49 مربعا صغيرا وتلعب بالحجر.

أن هذا لا يعني أنها قد فقدت وظيفتها، إنما نجد الإنسان دائما يحن لهذه الأماكن بل يجد فيها راحة نفسية، وتنعكس الثقافة المادية دائما على عدة جوانب تنموية كالاجتماعية والاقتصادية والثقافية ومن مظاهرها ما يلي:

العمران والأماكن الأثرية حيث تظهر خلالها التنمية الاجتماعية من خلال جلب السواح للمناطق الأثرية لمدينة تبسة كالسور البيزنطي والمدينة الرومانية واكس القديمة، فالمكان له دور في قضية الموروث بالنسبة للفرد والجماعات، كما يمكن الإشارة إلى أن المجتمع التبسي ارتبط بالآثار الرومانية والبيزنطية رغم الإهمال الكبير من قبل السلطات وحتى سكان المدينة، ومن هنا يتضح أن الأماكن الأثرية شكلت دورا تنمويا ثقافيا هاما في حياة المجتمع التبسي.

ويشكل التراث العمراني والأثري في مجتمع الدراسة طاقة كامنة يمكن استغلالها ثقافيا وسياحيا واجتماعيا، ومما لاشك فيه أن قطاع السياحة أداة فعالة في التنمية المحلية الاجتماعية انطلاقا من مميزاته التي لها علاقة بالاقتصاد الجزئي كالربح والسيولة، وإدراكا منا لأهمية التراث التاريخي والثقافي والمادي في النهوض بالنشاط السياحي على مستوى مدينة تبسة ودوره في بعث تحولات اجتماعية واقتصادية تشكل في حد ذاتها قاعدة التنمية على المستوى المحلي.

الصناعات التقليدية واليدوية: حيث تعتبر واحدة من مقومات الشخصية الوطنية لدى كل شعوب العالم، لأنها تميز خصوصية المجتمع وهويته وأصالته كما تعبر عن تراكمات الإنتاج الحضاري لأفراد المجتمع المدروس، وبالتالي يعد الحفاظ على الصناعات التقليدية من صميم الحفاظ على تراث الأجداد، كما يعد عنوانا للشخصية المعنوية لكل أمة، مما جعل المجتمع التبسي يولي أهمية كبيرة لهذا العنصر الحضاري، حيث تظهر ملامح التنمية الاجتماعية هنا من خلال القدرة الكبيرة لهذا القطاع على امتصاص البطالة وإنتاج فرص العمل وهذا باستخدام وسائل بسيطة يحتاجها الحرفي في عمله ليمارس أي نشاط، كما بإمكان القطاع أن يشكل نسيجا اقتصاديا للأسر المنتجة، وهذا يؤثر إيجابا على التنمية من خلال رفع المستوى المعيشي للأفراد، كما أن للقطاع دور كبير في التكفل بالشباب مما يجعله مساهما في الحفاظ على هذه الفئة من كل أشكال الانحراف.

خاتمة

تعتبر الثقافة الشعبية بكل متغيراتها وثوابتها وفلسفتها المعبرة على إحساس وفكر وثقافة وبيئة الشعوب التي تسهم في إنتاجها وإثرائها بمختلف التوجهات الفكرية والعلمية السائدة ضمنها، والتي تسهم في بلورة و إنتاج ومن ثم تأصيل الهُوية الثقافية للشعوب وإبداعاتها عبر العصور، الأمر الذي يستوجب ضرورة مراعاة التعامل مع الماضي واستيعاب قيمه كحقائق مكانية تحمل خصوصية الثقافة الإنسانية على امتداد الزمن، لذا لا يمكن إهمالها ضمن مسار الحفاظ على هذا الموروث وصيانته حاضرا ومستقبلا.

كما أن مسألة التنمية الاجتماعية في مختلف تجلياتها هي انعكاس منطقي لطبيعة الثقافة الشعبية السائدة في المجتمع، فالقيم والمعتقدات وأنماط التفكير ومختلف التمثلات التي يتشبث بها الأفراد في مخيالهم الاجتماعي، هي من تتحكم في الأسلوب الذي ينتهجه هؤلاء في تسيير وتدبير مواردهم المادية والبشرية، وفي تناول إشكالياتهم التنموية المطروحة بعد ذلك.

الهوامش

[1] Megherbi abdelghani: La culture et la personnalité dans la société Algérienne de Massinissa a nos jour, ENAL,OPU, alger , 1986, p 9.

[2] مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، مصر، ط4، 2004.

[3] برغوث الطيب: موقع المسألة الثقافية من إستراتيجية التجديد الحضاري عند مالك بن نبي، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، 1993، ص14.

[4] أبو زيد أحمد: هوية الثقافة العربية، الهيئة العامة للثقافة، 2004، ص14.

[5] عامري محمد حسن: المدخل الثقافي لدراسة الشخصية، المكتب الجامعي، ب د س، ص80.

[6] حسن مؤمن: الحضارة- دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها - ، عالم المعرفة، الكويت، ص394.

[7] السويدي محمد: مفاهيم علم الاجتماع الثقافي ومصطلحاته، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط1، 1991، ص48.

[8] لومبار جاك: مدخل إلى الإثنولوجيا، ترجمة حسن قبسي، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 1997، ص153.

[9] الساعاتي سامية حسن: الثقافة والشخصية، بحث في علم الاجتماع الثقافي، دار النهضة العربية، بيروت، 1983، ص27.

[10] السعيداني منير: الثقافة والآخر، الدار العربية للكتاب، تونس، د ط، 2006، ص57.

[11] إبراهيم نبيلة: الدراسات الشعبية بين النظرية والتطبيق، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، 1994، ص ص 137-139.

[12] عبده محمد، محجوب أحمد، مصطفى فاروق وآخرون: دراسة أنثروبولوجية في المجتمع والثقافة، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، 2005، ص33.

[13] - Mjerwan .sabek.dictionnair.eltrilitingue.anglais.francais.arabe.maison sabek.paris p556.

[14] عبد الله، الحافظ مجدي: مجلة الحوار الفكري، العدد الأول، جويلية، 2001، ص 62.

[15] - المنير، محمود سمير، العولمة وعالم بلا هوية، دار الالكلمة للنشر والتوزيع، مصر، ط1، 2000. ص 146.

[16] صامويل، هنتنجون، صدام الحضارات: إعادة صناعة النظام العالمي، تر: طلعت، الشايب، تقديم: صلاح، قنصوة، ط2، 1999، ص116.

[17] مسلم محمد، الهوية في مواجهة الاندماج، دار قرطبة، الجزائر، 2009، ص 18.

[18] - الجابري، محمد عابد: العرب والعولمة، بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط2، 1998، ص298.

[19] المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم: الخطة الشاملة للثقافة العربية والعلوم، ط2، تونس، د ت، ص21.

[20] السويدي محمد: مفاهيم علم الاجتماع الثقافي ومصطلحاته، مرجع سابق، ص14.

[21] الجوهري عبد الهادي: قاموس علم الاجتماع ،مكتبة نهضة الشرق ،القاهرة ،1983، ص74.

[22] United Nation: social Progress Through Economic Development ,U. N .Report ,New York ,1956 ,p,8.

[23] حسن محمد، عبد الباسط : التنمية الاجتماعية، ط2، دار غريب للطباعة، القاهرة ،1977 ، ص 70.

[24] عيساوي أحمد: مدينة تبسة وأعلامها، دار البلاغ للنشر، الجزائر، 2005، ص 02.

[25] حليلو نبيل: الأسرة وعوامل نجاحها، الملتقى 2 حول الاتصال وجودة الحياة والأسرة، جامعة قاصدي مرباح، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، أيام 10/09 أفريل 2013.

[26] بن عمر كمال: الألغاز الشعبية في منطقة وادي سوف، رسالة ماجستير، جامعة الحاج لخضر، باتنة، الجزائر، 2007، ص24.

[27] طوالبي نورالدين: الدين والطقوس والتغيرات، ترجمة وجيه البعيني، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1988، ص88.

[28] إحسان محمد الحسن: العائلة والقرابة والزواج في المجتمع العربي، دار الطليعة، بيروت، 1981، ص16.

[29] فريديريك معتوق: التقاليد والعادات الشعبية اللبنانية، مطبعة جروس برس، طرابلس، لبنان، د س، ص81.

[30] بو معقودة حفيظة، البنية الحكائية في القصة الشعبية منطقة تبسة أنموذجا، ماجستير في الأدب العربي، جامعة العربي التبسي تبسة 2009-2010، ص 26.

[31] عبد الرحمان الجيلاني: تاريخ الجزائر العام، د.م.ج، الجزائر، د ت.

[32] Pierre castel: tebessa histoire et description d un territoire algérienne, paris, t2.

[33] كعباش رابح: سوسيولوجيا التنمية، مخبر علم اجتماع الاتصال للبحث والتنمية، جامعة منتوري، قسنطينة، د ط، 2007، ص 42.

[34] بن نبي مالك: مشكلة الثقافة، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط4، 2000، ص 33.

[35] العرموضي المازن: لقاء الإسلام والغرب وحقوق الإنسان، منشورات المعهد الدبلوماسي، عمان، الأردن، د ط، 1994، ص32.

[36] أبو زيد أحمد: محاضرات في الأنثروبولوجيا الثقافية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، د ط، 1978، ص47.